جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة: 2022 – 2023

المستوى : السنة الثالثة السداسي : الثالث التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: حلقات البحث

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس قراءة في كتاب المغرب في أخبار إفريقية والمغرب لأبي عبيد الله البكري

قراءة في كتاب المغرب في أخبار إفريقية والمغرب
لأبي عبيد الله البكري

أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، مؤرخ جغرافي، ثقة علامة بالأدب، له معرفة بالنبات، وهو من مدينة مرسيه من أعيان أهل الأندلس وأكابرهم.

ولد البكري حوالي سنة 1021م، في قصر والده في مدينة ولبه في غرب الأندلس، وكان والده عبد العزيز يلقب بمعز الدولة، إذ كان من أمراء الطوائف.

وهو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري المشهور خاصة بكنيته أبو عبيد، ولد بلبلة من عائلة عربية، يرجع أصلها إلى قبيلة بكر وائل، تولى الكثير من أفرادها مناصب رسمية بالأندلس، ولكن لا نعرف شيئا يذكر عن أوائل هذه العائلة، ولا عن الفترة التي استقرت فيها بالأندلس.

نشأ أبو عبيد الله البكري في بيت إمارة وسيادة، وتتلمذ على يد أبي حيان وأبي العباس أحمد بن عمر العذري وأبي بكر المصحفي وأبي بن عبد البر الحافظ الذي تسلم منه إجازة رواية... ويبدو أنه انتقل مع أبيه إلى قرطبة في سنة 443 هـ، وبقي فيها بما فيه الكفاية كي يواصل ثقافته الأدبية والعلمية حتى لقب بالقرطبي إلا أن أكثر شهرته هي الأندلسي.

ولا نعلم كم بقي أبو عبيد الله بقرطبة، وهل تركها في حياة والده أم بعد وفاته، فابن بشكوال يعلمنا أنه تابع دروس أبي مروان ودروس المؤرخ الكبير أبي حيان والمؤكد انه اتبع أيضا بقرطبة دروس أبي بكر المشعفي وابن عبد البّر ، ولا يمكن أن نعرف أي تآليفه ألّف إن كان قد ألف مدة هذا المقام الأول بقرطبة لأن تواريخ تآليفه غير معروفة، ولكن الكثير من القرائن تبين انه لم يكن عديم الشغل، وأن الكثير من تآليفه قد تكون ظهرت في تلك الفترة، ويبدو حسب خبر لابن حيان نقله الفتح بن خاقان وحكاه أيضا ابن الأبار في شيء من الاحتراز أن البكري قد انتقل من بعد إلى المرية بدعوة من أميرها محمد ابن معن، ولا شك أن سبب هذه الدعوة كانت شهرة الرجل بصفته أديبا، واستقبله حاكم المرية بترحاب وجعله من خلانه وانقسمت حياة أبي عبيد الله بين حياة البلاط، والدراسة وتابع في المرية دروسه.

وذهب البكري سنة 478/1085– 1086 إلى اشبيلية موفدا من قبل محمد بن معن لدى المعتمد بن عباد عندما ذهب الى المغرب الأقصى يستنجد بعون المرابطين ضدّ التهديد الصليبي. ثم نجده من جديد سنة 483/1090– 1091 بقرطبة التي صارت عاصمة الأندلس بعد دخول المرابطين إليها، والراجح انه قضى بها بقية حياته بين الدراسة والحياة مع أصدقائه وبها توفي أيضا.

كتابه المسالك والممالك:

يعد كتاب المسالك والممالك من أهم مؤلفات المؤرخ والجغرافي أبي عبيد البكري، حيث تناول فيه سيرته وحياته وشيوخه وتلاميذته، وكذا منهجه، وهو كتاب جمع بين التاريخ والجغرافيا، كما ذكر فيه العديد من المؤلفات التاريخية والجغرافية وغيرها، وتحدث عن الممالك وعرض العديد من شعوب العالم، ووصف الإمبراطوريات والقصص التاريخية.

ويشتمل كتاب المسالك على قسمين متقاربي الحجم، والراجح أن القسم الأول كان يحتوي مقدمة عامة أو تمهيدا يعتبر اليوم ضائعا، ويستهل هذا القسم بمقدمة تاريخية طويلة تبدأ ببدأ الخلق، وتتعرض لتاريخ الأنبياء من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما الفصل الموالي فيتعلق بالمعتقدات الدينية وأوهام قدماء العرب.

ويبدأ القسم الجغرافي الحقيقي بفصول عديدة في الجغرافية العامة: الأراضي– البحار– الأنهار– الأقاليم السبعة.

ويستعرض المؤلف بعد ذلك البحار السبعة وأهم الأنهار، وبعنوان: ابتداء الممالك نبدأ في القسم الذي تسمى به كل الكتاب ويتمثل في وصف العالم بلدا بلدا وجهة جهة ومدينة مدينة. ونجد دائما نفس التخطيط: مقدمة تاريخية– وصف عام للبلاد والسكان والمنتوجات وصف للمسالك (وهذا القسم ضائع في الكثير من الأحيان مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الأندلس) ووصف للبلدان مع قسم تاريخي في الغالب، ويتخلل كل ذلك بعض الحكايات الغريبة تتصل بأدب العجائب.

والتدرج العام ينطلق من المشرق الى المغرب ويبدأ بالهند فالصين فالترك ثم ينتقل الى الشام والتبت والسند، وملوك السودان ثم البربر وبلاد واحات افريقيا ثم أوروبا فيتحدث البكري عن الصقالبة والافرنج والجلالقة والنورمان ويختم بفصل عن الأكراد.

ويبدأ القسم الخاص بهؤلاء بتاريخ ممالك العرب القدامى في اليمن والحيرة. ويلي ذلك وصف الجزيرة العربية بصفة إجمالية ثم جهة جهة بداية باليمن، وفي هذا القسم يخصص المؤلف فصلا طويلا لمكة، المدينة المقدسة، تاريخها وأماكنها المقدسة والجبال التي تحيط بها، ونجد تحاليل متشابهة بالنسبة الى يثرب أو المدينة وينتهي هذا القسم: بالطريق من مدينة النبي إلى مصر.

وفي العراق أيضا يصف البلاد وأهم مدنه، ونجد في آخر الجزء الأول بعض المقالات عن بعض الشعوب التركية.

وييصف في القسم الثاني حائط ياجوج وماجوج ورحلة سلام الترجمان ثم يرجع المؤلف الى الشرق الأوسط ويقدم لنا معلومات عن العواصم وعن الشام نفسه بمدنه الرئيسية...[16]

وتتواصل بعد هذا الانقطاع الرحلة نحو المغرب بفصل طويل عن مصر ينتقل فيه المؤلف من وصف البلاد عامة مع ذكر بعض الخصائص، الى استعراض تاريخها حتى الفتح الاسلامي. ويعير القسم المخصص للتاريخ القديم قيمة كبرى للعجائب ويلي وصف مصر قائمة كور البلاد.

ويقودنا طريق الاسكندرية– افريقية إلى شمال افريقيا، وتتوالى المعلومات عن المسالك ووصف المدن بشيء من التطويل أو التقصير ونجد تحليلات تاريخية طويلة عن الأدارسة وبرغواطة والمرابطين، إنها نفس الطريقة المتبعة بالنسبة الى المشرق.

وعند وصولنا الى أقصى الجنوب المغربي سجلماسة– أغمات نتجه الى الجنوب ونخترق الصحراء ونزور بلاد السودان: غانة ومالي الخ.

ويهتم القسم الأخير من الكتاب بأوروبا الغربية ويبدأ بوصف عام للأندلس ثم تقسيماته فجباله فخصائصه ثم تستعرض بعض المدن بداية من قرطبة واشبيلية وتتبع ذلك مقالات عن جليقة وبلاد الافرنج البوتونيين ومن المؤسف انه لم تحفظ إلا أجزاء.

فقال خفيفا كنت او ثقيلا لا اتخلف عنها لان الله تبارك وتعالى يقول انفروا خفافا وثقالا ثم قال فدمت سرية على النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا البرد فقال قال رسول الله ان البرد الشديد والاجر العظيم لاهـــل افريقية وروى ابن ابي العرب قال حدثني فرات حدثني عبد الله بن ابي حسان عن عبد الرحمن بن زياد ابن انعم عن ابي عبد الرحمن الجبلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقطع الجهاد عن البلاد كلها فلا يبقى الا بموضع في المغرب يقال له افريقية فبينا القوم بازاء عدوهم نظروا الى الجبال قد سيّرت فيخرّون لله تبارك وتعالى سجّدا فلا ينزع عنهم اخلافهم الا خدّامهم في الجنة وكان عبد الرحمن بن زياد بن انعم يقول ينقطع الجهاد من كل بلد وسيعود الى افريقية وليضربنّ القبايل من الافاق الى افريقية لعدل امامهم ورخص اسعارهم وروى ابن ابي العرب عن عبد الله بن عمر العمري عن ابن لهيعة عن ابي قبيل عن عبد الله ابن عمرو انه قال والله ليباعن الجمل بمصر بعشرة دنانير ثم ليباعنّ بماية دينار لغلاة الناس بها وكاني اسمع صرير المحامل على عقبة الثنية من مصر الى افريقية يطلبون بها الجهاد والعدل وليملكنّ افريقية رجل يعدل فيهم اثنين وعشرين او اربعة وعشرين سنة

ذكر مسجد القيروان

قد تقدم ان اول من وضع محرابه وبناه عقبة بن نافع ثم هدمه حسان حـــاشى المحراب وبناه وجعل اليه الساريتين الحمراوين الموشّاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلها من كنيسة كانت للاول في الموضع المعروف اليوم بالقبســـارية بسوق الضرب ويقولون ان صاحب القسطنطينية بعث لهم فيهما قبل نقلهما الى الجـامع

زنتها ذهبا فابتدروا الجامع بهما ويذكر كل من راهما انه لم ير في البلاد ما يفتن بهما فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب اليه عامله على القيروان يعلمه ان الجامع يضيف باهله وان بجوفيه جنة كبيرة لقوم من قهر فكتب اليه هشام يامر بشربها وان يدخلها المسجد الجامع فجعل وبنى في صحنه ماجلا وهو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات وبنى الصومعة في بير الجنان ونصب اساسها على الماء واتعب ان وقعت في نفس الحايط الجوفي واهل الورع يكرهون الصلاة في هذه الزيادة ويقولون انه اكره اهل الجنة على بيعها والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون ولها بابان شرقي وغربي وعضايد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما فلما ولي افريقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين وماية هدم الجامع كله حاشى المحراب وبناه واشترى العمود الاخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه وهو الذي كان يصلي عليه القاضي ابو العباس عبدون فلما ولي زيادة الله بن ابراهيم ابن الاغلب هدم الجامع كله واراد هدم المحراب فقيل له ان من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه فلج في هدمه لئلا يكون في الجامع اثر لغيره حتى قال له بعض البناة انا ادخله بين حايطين ولا يظهر في الجامع اثر لغيرك فاستصوب ذلك وجعله فهو على بنائه الى اليوم والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الابيض من اعلاه الى اسفله مخرّم منقوش كله منه كتابة تقرا ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به اعمدة رخام في غاية الحسن والعمودان الاحمران المذكوران يقابلا المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب وعدد ما في الجامع من الاعمدة اربع ماية واربعة عشر عمودا وبلاطاته سبعة عشر بلاطا

وطوله مايتان وعشرون ذراعا وعرضه ماية وخمسون ذراعا وكانت
فيه مقصورة فلم يزل بفناء زيادة الله فيه والمقصورة اليوم انما هي دار
يقبلي الجامع بابها في رحبة الشرطها باب عند المنبر يدخل منه
الامام بعد ان ينزل في هذه الدار حتى تقرب الصلاة وبلغت
النفقة في بنيانه ستة وثمانين الف مثقال ولما ولى ابراهيم بن احمد
ابن الاغلب زاد في طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب
البهو على اخر بلاط المحراب وفي دورها اثنان وثلاثون سارية من
بديع الرخام وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد
كل من راها انه لم ير مبنى احسن منه وقد فُرش من المحسن
بين ايدى البلاطات نحو خمس عشرة ذراعا وللجامع عشرة ابواب
ومقصورة للنساء في شرقيها بينها وبين الجامع حايط اخر مخرّم
بمحكم العمل ۞ ومدينة القيروان في بساط من الارض مديد من
الجوب منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهدية وفي القبلة بحر
اسفاقس وقابس وافربها منها البحر الشرقي بينها وبينه مسيرة يوم
وبينها وبين الجبل مسيرة يوم وبينها وبين سواد الزيتون المعروف
بالساحل مسيرة يوم وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف
وساير جوانبها ارضون طيبة كريمة واحسنها الجانب الغربي وهو
المعروف بمحص الدرّارة يصاب فيه في السنة الخصبة للحبة ماية وَهَوَاءُ
هذا الجانب طيب صحيح وكان زياد بن خلفون المتطبب اذا خرج
من القيروان يريد مدينة رقّادة وحاذى باب اصرم رفع العمامة
عن راسه يباشر الهواء براسه كالمتداوى به لصحته وللقيروان من
القديم سبع محارس اربعة خارجها وثلاثة داخلها وكان للقيروان
في القديم سور طوب سعته عشرة اذرع بناه محمد بن الاشعث
ابن العنبة الخزاعي سنة اربع واربعين وماية وهو اول فايد دخل